بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ المجلس (٠٠٧)

تتمة قراءة وتعليق على الباب الأول

"في ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري"[١].

[١ - أصل قدماء الجزائر]

دل الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على أن البشر كلهم من نسل آدم عليه السلام، وأنه هلك جميعه في الطوفان على عهد نوح عليه السلام ولم ينج إلا من ركب معه في السفينة ولم يعقب منهم إلا أبناؤه {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}[٢].

---

[١] الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبد ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد: فيقول الإمام العلامة الشيخ مبارك بن محمد الميلي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه "**تاريخ الجزائر في القديم والحديث**" الجزء الأول في الباب الأول وهو "**في ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري**".

[٢] هذا كما جاء صريحا في آيات القرآن الكريم، أما كون البشر كلهم من نسل آدم فهذا جاء في الآية في كتاب الله ﷻ {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}البقرة٣٠، وقال جل وعلا {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً}النساء١ وفي الآية الأخرى {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}الأعراف١٨٩، فأول مخلوق خلقه الله آدم ﷺ من البشر، وجاء من نسله باقي البشر، فكلنا كما قال ﷺ (كلكم لآدم وآدم من تراب) [من خطبة الوداع]، وبين آدم ونوح ﷺ عشرة قرون كلها على التوحيد كما جاء في الأثر عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وذكره البخاري في الصحيح، كلها عشرة قرون -أي ألف سنة-

---

على التوحيد، أول خلاف وقع في الميل عن التوحيد إلى الشرك إنما كان في قوم نوح، كما قال تعالى { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا}نوح٢١-٢٤، قال ابن عباس وغيره من أئمة التفسير: هذه أسماء رجال صالحين، أي سواعا ويغوث ويعوق ونسرا رجال أقوام صالحين، لمّا ماتوا عكف قومهم عندهم ثم صوروا صورهم ثم نحتوا تماثيل لهم حتى إذا ذهب العلم جاء الشيطان في صورة إنسان وقال لأولئك: ألا أدعوكم لما كان عليه الآباء والأجداد؟ قالوا: بلى، قال: كانوا يعبدونهم، فصاروا يعبدون هذه الأوثان، وتلك الأوثان نفسها هي التي انتقلت عبد الأحقاب الزمنية حتى انتهت إلى أرض الجزيرة، وكان أول من نقلها إلى مكة عمرو بن لحي الخزاعي، ولهذا قال ﷺ (هو أول من سيب السوائب) [أخرجه البخاري (٣٥٢١)،ومسلم (٢٨٥٦)] أو كما قال ﷺ.

في قوم نوح ﷺ بعد أن دعا قومه إلى توحيد الله ﷻ وأبوا عليه، وما آمن منهم إلا قليل كما قال ﷻ أمره الله ﷻ بأن يصنع السفينة، {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ }هود٣٨، فكان يصنع هذه السفينة، فيمر عليه قومه فيضحكون، ما بال هذه السفينة في أرض صحراء رملية، ما الذي سيفعل بها، وهو كان يوحى إليه من ربه ﷻ أنه سيغرقهم، وأمره أن يتخذ هذه وسيلة، فكان يبنيها، حتى إذا أتم بناءها وجاء اليوم الموعود {حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ}هود٤٠، وفي الآية الأخرى {إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ }المؤمنون٢٧، فركبوا السفينة {وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}هود٤١-٤٣، الجودي منطقة قيل بالعراق، فكان من نوح ﷺ طلب من الله ﷻ أن يصعد ويركب معه في السفينة من كل زوجين، من كل صنف زوجين، ووقع التناسل بعد ذلك، فلما جاء الطوفان أهلك الله من على الأرض جميعا، ولم يبق إلا نوح ومن آمن معه، وبعد ذلك بعد أن جفت الأرض، وعاد الامر على ما كان عليه، نزل نوح ومن معه ووقع التناسل فيهم بعد ذلك.

قال (ولم ينج إلا من ركب معه في السفينة ولم يعقب منهم إلا أبناؤه {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ} ذرية نوح ﷺ {هُمُ الْبَاقِينَ} فجاءت الذرية بعد ذلك من ذرية نوح.

واتفق المؤرخون على أن أبناء نوح الذين تفرعت عنهم جميع أمم الدنيا ثلاثة[١]: سام، حام، يافث.

وقد ذكر ابن خلدون في أبناء يافث قطوبال ثم ذكر الأمم المتفرعة عنه فقال: "وأما قطوبال فهم أهل الصين من المشرق، واللمان من المغرب ويقال أن أهل أفريقية قبل البربر منهم، وأن الافرنج أيضا منهم. ويقال أيضا أن أهل الأندلس قديما منهم"[٢].

فإذا صحت هذه الرواية- ولصحتها شواهد[٣] ستراها- كان قدماء شمال أفريقية وبلاد الفرنجة والأندلس ذوي رحم. ولهم إخوة مع الصين بالشرق[٤].

وعلى هذه الرواية يكون شمال أفريقية أقدم عمارة من جنوب أوروبا، لأن أبناء قطوبال لا شك أنهم مروا بمصر- حسبما هدت اليه الآثار[٥]- ثم نزلوا أفريقية الشمالية. وقد كان البحر الرومي - إذ ذاك- قليل الماء ومتصلا بأوروبا من جهة صقلية ومضيق جبل طارق. (وقد ذكروا أن الذي حفر بوغار جبل طارق هو هرقول وقيل الإسكندر).

---

[١] هذا الذي عليه جميع المؤرخين تقريبا، وهو أن البشرية جاءت بعد ذلك من نسل نوح من ثلاثة أولاد، من سام، وحام، ويافث.

[٢] هذه الشعوب تقريبا متقاربة، وهذا فيه إشارة إلى أن هذه الأرض قد سكنها جنس قبل البربر.

[٣] يعني أدلة.

[٤] يعني هؤلاء أجناس متقاربون يجمعهم رحم، من هم؟ قدماء شمال إفريقية، وبلاد الفرنجة، والأندلس، ويجمعهم أيضا شرق الصين.

[٥] يعني هذه حجة تاريخية يرد بها على الغرب الكافر، فرنسا وإيطاليا وغيرها، الذين استعمروا هذه البلاد ونقبوا فيها وأخرجوا لنا بعض الآثار، وقالوا: هذه آثار أجدادنا القدامى، يعني أجدادنا كانوا هنا، فنحن لم نستعمركم وإنما رجعنا إلى أصلنا الأول، هذه حجة تاريخية عليهم.

فالسكان هنا أقدر من أوروبا فليس ليهم حجة في أن يقولوا: قد رجعوا إلى الأرض التي كان فيها أجدادهم كما يزعمون

والأول أصح فإن هرقول متقدم الزمن جدا. أما الإسكندر فمن المحقق أن الفينيقيين- وهم أقدم منه- اجتازوا إلى الأندلس في سفن (أواخر الألف الثاني قبل الميلاد)[١] فانتقل بعض أبناء قطوبال من أفريقيا إلى جنوب أوربا برا- إذ لا سفن لهم في ذلك الحين- سالكين تينك السبيلين[٢]. وسنقف على الآثار المؤيدة لهذا الرأي.

---

[١] ذكرنا التاريخ وكيف أرخوا لأعمار الدنيا، والذي استقر عليه أكثرهم ذكر تأريخين، التاريخ الميلادي، والتاريخ الهجري، ولهذا هنا تجد في ذكر الحوادث التاريخية قبل الميلاد، بعد الميلاد، أو قبل الهجرة وبعد الهجرة، والذي ينبغي أن يتمسك به المسلمون هو تاريخهم الهجري، وإن كان قلّ من يهتم به، يعني لو نسأل اليوم نحن في أي سنة؟ قل من يجيب، فإذا قلنا في أي شهر؟ صار أقل من القليل، وإذا قلنا في أي يوم؟ ربما يكون المتحدث قد فاته لكثرة التعلق بهذا التاريخ الميلادي، -١٤ ربيع الآخر سنة ١٤٤٠هـ-.

[٢] وسنقف على الآثار المؤيدة لهذا الرأي، الذي هو كون شمال إفريقية أقدم عمارة من جنوب أوربا ولكون أبناء قاطوبال هو من ولد يافث من أبناء نوح ﷺ أتوا ومروا بمصر ونزلوا بإفريقيا، ومن ثمة إلى لأندلس ثم جنوب أوروبا.

[٢ – آثار قدماء الجزائر][١]

عثر الباحثون في الوطن الجزائري على آثار لأهل العصر الحجري، وهي إما منازل لأحيائهم، وإما قبور لموتاهم. وإما آلات لحياتهم من مصنوعاتهم وإما اشياء من مقتنياتهم[٢].

١ – المنازل: أما المنازل فقد وجدت آثارها بالأماكن المرتفعة والكهوف على مقربة من العيون والأودية. وعلة نزول الهضاب والكهوف التمكن من حماية أنفسهم من الحيوانات الضارية، والامتناع من الأعداء الهاجمين. وحكمة الاقتراب من الماء البارز على سطح الأرض سهولة التزود منه، لبساطة حياتهم وقلة اختبارهم للطبيعة[٣].

ومن المنازل المكتشفة[٤] منزل قرب معسكر ومنازل أخرى بجهات وهران، الجزائر، سعيدة، عين مليلة، سطيف، العين البيضاء، تبسة[٥].

---

[١] هذه آثار اكتشفت بحسب ما تبقى منها، يعني ذكر الأشياء التي كانت قديما في هذا البلد.

[٢] يعني على بعد هذا الزمان فالباحثون في علم التاريخ، وعلم الآثار والجيولوجيا وغير ذلك وجدوا بعض الآثار من عهود قديمة جدا، شيء يتعلق بالمنازل، وشيء يتعلق بالقبور، وشيء يتعلق بآلات العمل اليومية وشيء يتعلق بالمقتنيات التي يقتنونها من لباس وغيره.

[٣] من الذي أعطاهم هذا الفكر؟ من الذي هداهم إلى هذه الفكرة؟ الله ﷻ. فكانوا يتخيرون أماكن السكن الهضاب، والكهوف التي فيها اختباء، مع القرب من الماء، أما العلو والكهوف فلتوقي من الأعداء، وكذلك من الحيوانات المعتدية، وأما قرب الماء فالمقصود من ذلك التزود منه لمشقة كلفة التزود إذا كان بعيدا، ليس كما هو الآن الأمر، وهذا إنما هداهم إليه المولى ﷻ.

[٤] يعني بعض الآثار الموجودة.

[٥] وهذا يدل على أن هذه المنازل سكنت وهي قديمة، هذه أماكن سكنها الجنس البشري فيدل هذا على عراقتها وعلى قدمها.

٢ - القبور: وأما القبور فقد وجدت متفرقة ومجتمعة فوق الكهوف والهضاب. وهي مبنية بحجارة غير مصنوعة أو بها أثر ضعيف من الصنع[١]، وملتصقة من غير ربط بطين ونحوها. يتخذون عليها صومعة من حجر كقالب السكر. وكثيرا ما يجعلون عليها صفيا عريضة ويحوطونها بصف من الحجارة. ثم أخذ من خلف الأولين منهم يقلل من هذه الأعمال القبورية حتى صاروا يكتفون بحياطتها بدائرة حجرية ويدعون الصندوق الحجري بارزا على سطح الأرض بعد ما كانوا يضعون عليه حجارة كثيرة[٢].

ولهم في الدفن طريقتان[٣]: الأولى وضع الميت بمحل وقتي حتى ينفصل لحمه عن عظمه ثم يجمعون عظام الأموات ويضعونها في قبر واحد[٤]، الثانية أن يفصلوا اللحم عن العظم ما عدا المختلط بالعظام ثم يدفنون الهالك جالسا ملتصقا بطنه بفخذيه ولحاه بركبتيه ويجعلون معه أواني ببعضها طعام ويضعون معه أيضا أسلحة وأشياء من زينتهم[٥].

وقبور أهل هذا العصر كثيرة بوطن الجزائر، والبربر يدعونها قبور الجهلاء[٦]. وهي ترجع في تاريخها إلى العصر الحجري الذي انقرض أصحابه منذ أمد بعيد.

---

[١] يعني حجارة تبنى بها القبور، وقد ينحتونها شيئا يسيرا.

[٢] صاروا يضعون الميت ويحاط عليه بالحجارة فقط.

[٣] وجدوا أن الذين كانوا يهتمون بهذه الأرض وجدوها بأراض أخرى، هذا يدل على أن الأمر انتقل من مكان إلى آخر.

[٤] جماعة من الأموات يضعونهم حتى إذا زال اللحم جمعوا العظام ووضعوها في القبر.

[٥] الدفن بهذه الطريقة فيه إشارة إلى أنهم يرون أن بعد الحياة الدنيا فيه حياة أخرى، ولهذا يجعلونه على هذه الهيئة كحال الجنين، كأنه سيبدأ حياة جديدة، ويضعون معه أوان وأطعمة.

[٦] هذا يدل على أن قدم الإنسان والجنس البشري قد وطأت هذه البلد منذ زمن بعيد حتى أن البربر يسمون تلك القبور قبول الجهلاء، إذن قد وطؤوا الأرض، وكان فيها جنس بشري قبل البربر.

٣ - الآلات الحيوية: وأما مصنوعاتهم الآلية لحياتهم: فمنها هراوي[١] حجرية عديمة الاتقان[٢]، مساحي[٣]، مناقير[٤]، وجدت هذه الاشياء بطلل[٥] دار قرب معسكر[٦]. ومنها آلات وأسلحة مثل الأولى، عثر عليها قرب الرمشي (مونطانياك).

ومنها فؤوس كثيرة حجرية متقنة الصنع، إبر من عظام متقنة أيضا ومنها أوانٍ من طين مزينة بصور. اكتشفت بجهات سطيف وعين مليلة والعين البيضاء، ووجد معها أشياء من الأسلحة والآلات ومنها محكات لدبغ الجلود وأشاف واوعية من خشب[٧].

وهذه الآثار مختلفة في درجة الاتقان حسب اختلاف أزمنتها[٨].

٤ - المقتنيات: وأما الآثار التي جلبوها للاقتناء من غير أن يكون لهم فيها عمل فمنها أصداف كثيرة، برية وبحرية. عثر عليها بجهات وهران والجزائر وسعيدة وعين مليلة ونواح أخرى. وهذه الاصداف يتخذونها للزينة. ومنها عظام حيوانات وحشية وإنسية منها فرس الماء والكركدن ونوع من الفيلة عظيم انقطع نسله منذ قرون عديدة[٩]، عثر على عظام هذه الحيوانات قرب معسكر تحت كثيب رمل ارتفاعه ستون ذراعا. ومن تلك الحيوانات الوعل[١٠]، الغزال، الخنزير، الحمار، البقر، الضأن، العنز، عثر

---

[١] التي يضرب بها، هراوي حجرية.

[٢] يعني على بساطتها.

[٣] المسحاة التي يرفع بها التراب والطين وغيره.

[٤] التي تنقر بها الأشياء.

[٥] مرتفع.

[٦] مدينة معسكر مدينة قديمة.

[٧] أشياء صلبة تدبغ، تحك بها الجلود للتخذ لباسا.

[٨] يعني صار الإنسان يرتقي ويتطور في صنعها.

[٩] لعله الماموث شبيه بالفيل.

[١٠] كالغزال الذي له قرون متشابكة

على عظامها بجهات وهران والجزائر وسعيدة وعين مليلة، ومنها بيض النعام، عثر على شيء كثير منه بجهات متعددة. وهو مما يتزينون به[١].

هذه الآثار منها ما هو محلي[٢] محض غير مجلوب من وطن آخر ولا مشابه لآثار الأمم الاخرى. ومنها ما يشبه مصنوعات قدماء المصريين خاصة[٣]، ومنها ما له شبه بآثار قدماء مصر وأروبا الغربية. فان الآلات الحجرية متشابهة في هذه الأوطان. ووجد بمغارات في نواحي وهران أوانٍ من الفخار وحجر الصوان والعظم شبيهة بما وجد في مغارات بجبل طارق[٤]. وبناء القبور بالأحجار موجود بغرب أوروبا. والطريقة الأولى في دفن الأموات موجودة بصقيلية أيضا. وأكثر آثار قدماء الجزائر شبيهة بآثار قدماء مصر[٥].

إن المشابهة بين آثار أفريقية وآثار أوروبا الغربية دليل لصحة رواية ابن خلدون- وإن لم يجزم هو بصحتها- بأن سكان هذه الأوطان من أصل واحد. ثم في كثرة مشابهة آثار إفريقية لآثار مصر دليل على أن أبناء قطوبال دخلوا أفريقية من ناحية مصر. ثم في مشابهة آثار إفريقية بعضها لآثار صقلية وبعضها لآثار جبل طارق دليل على أن هذه الأمة دخلت أوروبا من تينك الجهتين.

ومؤرخو الإفرنج أحاطوا علما بهذه الآثار وما بينها من المشابهات ولكنهم لم يهتدوا لرواية ابن خلدون[٦].

---

[١] وبيض النعام أيضا يستعمل كالأواني.

[٢] أي من البلد.

[٣] فيه رحم بين هذه الأرض ومصر.

[٤] فيه دليل على أنهم انتقلوا إلى هذا البلد ومروا على المغرب جبل طارق.

[٥] إشارة إلى أن قاطوبال قدموا من مصر مرورا بهذا البلد، وذهبوا إلى جنوب أوربا.

[٦] أنا كنت ذكرت من قبل أن ابن خلدون جعل من قواعد التاريخ عنده اتخاذ مبدأ العمران وما يناسب ذاك الزمان، يعني دليلا لإثبات بعض المسائل التاريخية، ومنها هذا، يعني لمّا كانت هذه الآثار متشابهة من أين جاءت؟ هل من أوروبا جاؤوا إلينا؟ أم أنه من هنا كان الذهاب، قال: مؤرخو الإفرنج ذكروا هذه الآثار، لكن لم يهتدوا لما اهتدى إليه ابن خلدون، ابن خلدون قارن بين هذه الآثار، قال ما دام هي متشابهة، وقدم سكنى الأرض كان بالمشرق، فإذن أبناء قاطوبال جاؤوا من هناك، ومروا على مصر ودخلوا إفريقية ثم إلى غرب أوربا ثم إلى جنوبها.

فأثبتوا بطريق البحث والنظر أن سكان أفريقية وصقلية وأوروبا الجنوبية والغربية متفرع بعضهم عن بعض. ثم افترقوا في تعيين الأصل والفرع[١]: فمنهم من قال: أنه لا يعلم- لقدم الزمن جدا- من هي الأمة التي بقيت بوطنها والتي انتقلت عنه[٢]؟ ولا متى وقع انتقال المنتقل؟ ومنهم من جزم- من غير دليل- بأن الانتقال وقع من أوروبا إلى أفريقية الشمالية. وانا لا أقف موقف الطائفة الأولى، ولا أخضع لجزم الطائفة الثانية[٣]، بل أجزم بان الانتقال وقع من أفريقية الشمالية الى أوروبا الجنوبية والغربية. ومستندي[٤] في ذلك الآثار السابقة فإنها متصلة من المشرق إلى المغرب. ولم تجد طريقا أخرى متصلة بالشرق من جهة، وأوروبا مملوءة بالآثار التي لها شبه بآثار قدماء إفريقية[٥].

---

[١] هم أم نحن! الآن هم لأننا نحن من يذهب إليهم! بحرا وجوا!!.

[٢] فإذا قلنا إن الأمة التي بقيت في هذه الأرض نحن وانتقلت فهذا أصل وذاك فرع، والعكس بالعكس.

[٣] يعني الطائفة الأولى الذين لم يعلموا، الزمن بعيد فلم يعلموا، والطائفة الثانية لا دليل لهم ويجزمون أنهم من أوروبا جاؤوا إلى إفريقية.

[٤] الطائفة الأولى قالت لا ندري، الطائفة الثانية تكلمت بلا دليل، هو يتكلم بالدليل.

[٥] إذن فالانتقال كان من ها هنا إلى هناك. فهذا هو البلد الأصل. "الحراقة" يقولون كما رحلوا قديما نرحل الآن، والله المستعان، نسأل الله أن يهدي شبابنا، وأن يثبتهم، وأن يعقّلهم وأن يردهم إلى دينه ردا جميلا، وأن يجعل كما يقال "عقولهم في رؤوسهم" وليس في مكان تائه، ومن كانت له حاجة يقضيها، يقضيها بطريقة العقل، ويقضي مصالحه على طريقة معقولة، قد يسافر لقضاء الحوائج ويرجع، أما أن يخاطر بنفسه ويركب البحر هذا لا شك ولا ريب أنه على خطر عظيم.

وركوب البحر لا يجوز عند هيجانه، بل أفتى بعض العلماء أن الحج لا يجب فيمن كان يفصله عن مكة بحر -يعني في الزمن القديم- بل ومنهم من قال لا يجوز له أن يركب البحر، خشية أن يهلك نفسه، بل ومنهم من جعل أمنه لوصوله إلى مكة شرط صحة، فقال بعضهم -وإن كان قوله فيه شذوذ- لو ركب البحر مخاطرا بنفسه فيخشى عليه الموت، ولكن وقع أنه نجا ووصل إلى المكان الذي يحرم منه، هل يصح حجه أو لا؟ بعض أهل العلم يرى التشديد في هذا فكيف يركب الإنسان البحر، ليذهب ولا يدري ما الذي سيفعل، وإلى ماذا سينتهي، وما هو مقصوده، بل ربما سفره سفر حرام، وسفر معصية غير جائز، فنسأل الله تبارك وتعالى، أن يلهمنا الرشد، ويهدينا سواء السبيل.

[٣ – حياة قدماء الجزائر]

تختلف حياة الأمم بساطة ورفاهية باختلاف درجتها في معرفة وسائلها المادية والأدبية. والأستاذ الأول لتلقين تلك المعرفة هي الضرورة والحاجة. وقديما قيل: "الحاجة ام الاختراع"[١].

---

[١] يعني حياة الناس تختلف بساطة ورفاهية ودرجة ذلك بحسب الوسائل المادية والأدبية، وأول أستاذ للإنسان يعلمه الضرورة والحاجة، ولهذا أنت قد لا تهتدي لشيء، لكن عند الضرورة تهتدي إليه، لأن الضرورة تجعلك تفكر وتستنفذ عقلك في الفكر، وقديما قيل الحاجة أم الاختراع، لهذا يقول علماء الطب وما يتعلق بجسم الإنسان: عقل الإنسان هذه الآلة التي هي خارقة في طريقة عملها، كم من معلومة في عقولنا؟ قالوا: الإنسان يستعمل ثلاثة بالمائة من عقله، عامة الناس، يعني أمثالنا نحن، العلماء الذين وصلوا مرحلة ومرتبة في قوة العلم والفكر والذكاء والفطنة، يستعملون سبعة بالمائة فقط من العقل، وبالتالي فإمكانية الوصول إلى إدراك أشياء وقوة فهمها وتطويرها، هذا وارد لأن هذا عقل خلقه الله ﷻ لنا، ومنّ به علينا فنستفيد به فيما يرضي الله تبارك وتعالى.

الحاجة أم الاختراع، يعني أنك تصل إلى الشيء إذا كان فيه ما ينفعك، ولهذا نقول لطلاب العلم ستصل إلى الحفظ والفهم والتحصيل إذا كان فيه شيء يدفعك، هذه الحاجة ما هي بالنسبة لطلاب العلم ونحن المسلمين؟ الحاجة هي تعيين الهدف والهمة في الوصول إليه، وهذا الهدف يكون مربوطا بالنية، وهي نية الآخرة، ففي العلم الشرعي كون هذا العلم هو علم الدين، أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ وجعله في الوحيين الكتاب والسنة ومنهما نأخذ الأحكام، فهذا شيء عظيم، أفضل العلوم العلم الشرعي لا شك ولا ريب في ذلك، فإذا كنت تقيم هذا العلم وتنزله منزلته، إذا كنت تعرف حق القرآن وقدره ومنزلته، كلام الله ﷻ، إذا كنت تعرف قيمة الحديث، قيمة التفسير، قيمة العلوم التي تعينك على فهم الدين، هذه الحالة تدفعك إلى أن توجد ما لا يوجده غيرك، فتحفظ، وتحفظ، وتحفظ، وتحصل من العلم ما تفوق به الأقران، هذا مبدأ بشري والواقع يدل عليه.

ولهذا بعض الطلاب ثلاثة أشهر لا يقرأ ولا يفعل شيئا! لما تأتي الاختبارات ففي ليلة الاختبار يحفظ كل شيء، الحاجة -الاختبار- تصور لو أنه كان يفعل هذا قبل وليس ليلة الاختبار، من أول الدراسة، كيف يكون تفوّقه؟ ليلة الاختبار يراجع ويتحصل على ستة عشر، سبعة عشر، ثمانية عشر، فإذا كانت الدراسة من الأول لا شك ولا ريب أنه سيكون بذله قويا جدا، وينفع بذلك نفسه والبلاد والعباد، نسأل الله تبارك وتعالى التوفيق لطلابنا.

سائل: يقول كيف قام علماء الطب ونحوه بقياس نسبة استخدام الإنسان للعقل، والعقل غريزة لا تُلمس، وهل المقصود بذلك المخ وليس العقل؟

الشيخ: نرجع إلى العقل أين وجوده؟ هل هو في المخ أو في القلب أو بينهما؟ على أقوال ذكرها أهل الأصول، وذكر منها صاحب المختصر مختصر التحرير أربعة أقوال، أقربها أن العقل في القلب، ولكن له علاقة بالمخ، شبهها بعضهم في زمننا الحاضر كالإنارة مع القاطعة، فإذا ضغطت على زر القاطعة انطفأت الإنارة، وإذا ضغطت بالعكس اشتعلت،

وقد هدت الحاجة الإنسان الأول إلى اتخاذ مسكن يأوي اليه، وملبس يقيه حرارة القيظ أو زمهرير القر، ومطعم يحفظ عليه حياته ويقوي بدنه على تحمل عبء الحياة. ومكسب يقتنيه ويدخره ليستعين به في وجه من وجوه الحياة.

١ - المسكن: أما المساكن فقد دلت الآثار المكتشفة في غير ما موضع على أن قدماء الجزائر اتخذوها في الأكمات[١] والهضاب واختاروا لها مواضع المياه. وقد قدمنا الوجه في ذلك. ومن وجوه اختيارهم الهضاب على الوهاد[٢] الفرار من تراكم الثلوج على بيوتهم المفضي إلى القضاء عليهم تحتها[٣]. ذلك بأن الرياح تنسف الثلوج عن الأمكنة المرتفعة وتنقلها إلى الأمكنة المنخفضة، ولم يزل هذا الغرض ببعض جهات الجزائر معروفا معمولا به إلى اليوم وقد اتخذوا مدنا وقرى واحاطوها بأسوار من الحجارة

فكذلك العقل في القلب، وله علاقة بالدماغ والمخ، فبينهما واسطة أمرٍ ونهي والمقصود أن خلايا المخ التي تستعمل في التفكير هذا المقصود، قوتها هي هذه، ونسبتها هي هذه، والله أعلم.

إذن الله ﷻ هدى الإنسان إلى أمور حاجته، خلقه وهداه إلى ذلك، من الذي هداه؟ هذا -ترى- من الأدلة على وجود الله ﷻ لأن بعض الملحدين يناقش، ويلبّس، من الذي هدى الإنسان إلى هذا، أين الداعي؟ ما الذي يدفعه إلى ذلك، من الذي ركز وغرس وغرز فيه هذه الفطرة وهذا الميل؟ يقول: الحاجة، يقول: الدافع، يقول: الطبيعة، يقول: التطور، يقول: الارتقاء، يقول: الانتخاب الطبيعي، أشياء لا معنى لها، لأننا إذا تدرجنا معه سنصل إلى أنه لا يمكن أن يكون ذلك. هذه أشياء في الإنسان، يميل إليها ضرورة، ومن ذلك الجانب الخُلقي، الإنسان فيه أشياء خُلقية لا يستطيع أن يحيد عنها، من أين جاءت؟ فهذا الأمر الذي هو مركوز في نفوس لناس جميعا من أين جاء؟ يوجد في الدنيا من يتزوج أمه أو أخته أو بنته؟ إلا الشذوذ!!، طيب من الذي ركّز في نفسك أن هذا منكر؟ -غير مقبول- انتخاب طبيعي؟ الحاجة؟ الدافع الطبيعة؟ الصدفة؟ العشوائية؟ يستحيل، هذا الجانب الخلقي، هو من أقوى الأدلة أيضا على وجود الله ﷻ، والمراد منه أن هذا شيء غرسه الله ﷻ في النفوس، ولهذا فيه أصل خُلقي يجتمع عليه كل الناس، يجتمع عليه الجميع، من الذي غرسه فينا؟ الله ﷻ كما غرس في الإنسان منذ القدم ما يتعلق بحاجياته، اتخاذ المسكن، الملبس، المطعم، المكسب، إلى غيره.

[١] الأكمات جمع أكمة، والأكمة تلة من القف، والمراد بالقفّ ما غلظ من الأرض وارتفع، أو ما يبس، تجمع على أكمات وأكُم.

[٢] جمع وهدة، الهوة، المكان المنخفض.

[٣] هذه هي طبيعة الثلوج.

الضخمة غير منحوتة إلا قليلا. وكانت مساكنهم داخل المدينة أو القرية في أول عهدهم بالعمارة متخذة من أخشاب ومركبة بكيفية وقتية[1] ليسهل عليهم نقلها حيث ساروا.

وكانت لهم عربات تحمل تلك البيوت تجرها الخيل. وهم لا يأوون إلى مدنهم الا متى حز بهم أمر وداهمهم مكروه لا يستطيعون مقاومته ببايتهم[2].

٢ - اللبس: وأما لباسهم فكان من جلود الحيوانات التي يصطادونها، يدل على ذلك وجود محكات لدبغ تلك الجلود وأشاف لثقبها وإبر لخياطتها[3].

واتخذوا زينتهم وحليهم من بيض النعام والأصداف. وكانت رؤوسهم غير مكشوفة. يدل على ذلك وجود تماثيل حجرية تشخص إنسان ذلك العصر مكسو الرأس بالجلد أو الريش وماسك ثوبه الجلدي على كتفه بزر[4].

٣ - المطعم: وأما مطعمهم فكان من البقول[5] وثمار بعض الأشجار الطبيعية وخشاشات الأرض ولحوم الحيوانات التي يصطادونها من ظباء ووعول ونعام وخنازير وغير ذلك مما هدت إليه بقية عظامه وما ذهب ولم يبق له أثر.

٤ - المكسب: وأما مكسبهم فهو حيوانات يقومون بتربيتها أو حفظها من عاديات السباع[6] وينتجعون[7] بها مواضع الكلأ ومواقع المياه. وأهل الأراضي الخصبة منهم لا يبعدون عن النجعة بل إن منهم قبائل

---

[1] يعني لا يبقى فيها دائمة بل مؤقتة متى احتاجوا نقلها نقلوها، ليسهل عليهم نقلها حيث صار، هذا دأبهم وطريقتهم في السكن سابقا.

[2] إذن عندهم البادية وعندهم المدينة، المدينة يحيطونها بأسوار، ويسكنون البادية، فإذا حزّهم أمر أو دفعهم شيء، رجعوا إلى المدينة مكان سكناهم.

[3] هذه آثار وجدتْ، محكات يحكّون بها الجلود، ويثقبونها ثم يخيطونها، أي كان هذا لباسهم.

[4] كالقُفل، هذا الملبس كان من جلود كما ذكر.

[5] البقول التي ليس لها أغصان، ومأكولها في الأرض ومنها الحشائش أيضا.

[6] يحفظونها حتى لا يعتدي عليها السبع.

[7] الانتجاع هو ارتياد وقصد أماكن الرعي.

اختصت بجهات لزمتها ولم تخرج عنها إلى غيرها. قال اغسال Gsell في قوم وجدت لهم آثار بجهات سطيف وعين مليلة والعين البيضاء: "والظن أن يوتهم كانت من خشب وكثير منها طالت عمارتها. ويظهر أن هؤلاء السكان كانوا قليلي الانتقال". وذكر في موضع آخر: أن هناك قبائل لم تبرح أوطانها. وسكان الصحراء أبعد القبائل نجعة وأكثرهم انتقالا لجدب أراضيهم وقلة العشب والماء الكافيين لمواشيهم[1].

ومن حيواناتهم الإنسية الحمار والضأن والعنز، وقد عرفت هذه الحيوانات لقدماء المصريين فربما نقلها هؤلاء الأفريقيون من هناك حين مروا بمصر أو جلبوها من بعد[2]. ومنها الخيل، ويحتمل أن تكون مجلوبة من الشام لتحقق وجودها به منذ أحقاب عريقة في القدم. ومنها البقر، ويحتمل أن يكون أصله البقر الوحشي وراضه أهل هذا العصر حتى تأنس وتناسل. ومنها الفيل العظيم، وهذا انقطع نسله كما انقرض أهله وانما بقي أثره حسبما سبق. ومنها الكلب، وظنه بعض المؤرخين من المتأخرين متفرعا من الذئب. وهو من إغراقهم في الاندفاع خلف تيار مذهب النشوء والارتقاء[3] وعدم تحريهم في تطبيقه ولو أتقنوا درس الطبيعة لما حمّلوا على هذا المذهب أكثر مما يتحمل[4]، ولا ألصقوا به جزئيات

---

[1] كانوا يبعِدون بحثا عن الماء والكلأ، لأن أراضيهم فيها الجدب.

[2] هذا مما يؤيد أنهم جاؤوا من المشرق إلى هذه الأرض.

[3] نظرية داروين، نظرية التطور التي ذكرها في كتابه (أصل الأنواع)، وقلنا إن كتاب (أصل الأنواع) الأصل أنه فيه تأريخ للنظرية، أما النظرية مع ذكر تفاصيلها إنما كانت في كتاب آخر وهو (أصل الإنسان). والنظرية تكلمنا عنها في الدرس الماضي.

يعني يزعم أن النوع الإنساني من جنس واحد أو أجناس قليلة، ثم تطورت على ما فصلنا سابقا، وذكرنا الصواب في ذلك.

وهؤلاء من شهدة إغراقهم وتأثرهم بهذه النظرية، قالوا: الكلب أصله ذئب، متفرع عنه، العرب كانوا أفقه منهم كما سيأتي.

[4] كلام الإمام مبارك الميلي رحمه الله تعالى دقيق جدا خاصة إذا تابعتم معي في أول كلامه (**وأنار أمامهم مذهب النشوء والارتقاء ...**) الخ، كلامه مقتضب لكنه دقيق في هذه المسألة وهذه النظرية، وهاهو هنا يرد عليهم، فيثبت من أصل

جهلوا أصلها وهو لا يتسع لها. وقد نطقت التجربة والاختبار بأن الذئب- ولو ربي- لا يصير كلبا. ولله[1] صفاء أذهان العرب إذ تقول امرأة منهم أخذت جرو ذئب وأرضعته نعجة لها فلما كبر أكلها:

بقرت شويهتي وفجعت قلبي * وانت لشاتنا ولد ربيب**

غذيت بدرِّها[2] وربِّيت فينا * فمن أنباك أن أباك ذئب؟**

إذا كان الطباع طباع سوء * فلا لبن يفيد ولا حليب[3]**

هذه النظرية ما يوافق الواقع، وهو تطور من الجنس الواحد، حبة الزرع تضعها ينزل عليها المطر تنبت وتكبر ...الخ ومثله الجنين في بطن أمه، وهكذا، لا أن يكون تطور من جنس إلى آخر كما يزعمون، وانتهى بهم الأمر كما ذكرنا في الدرس الماضي.

[1] في نسخة (والله) صوابها بدون ألف -يظهر لي- (ولله)، أظن إذا وفق الله تعالى وأتممنا قراءة الكتاب، فهي قراءة استفادة إن شاء الله وقراءة تصحيح للطبعة إلى غاية طبعه مرة أخرى، لأنها كثيرة الأخطاء. (ولله) هذ مدح وذكر فضل.

[2] في نسخة (**بدورها**) والتصحيح (**بدرّها**) والمراد به للبن.

[3] هذا مثل. إذا كان الطبع سيئا ما ينفع لا لبن ولا حليب، هذا صفاء ذهن العرب، يقال لمن يسب الآن العرب، يجرح نفسه بظفره فيسب العرب (يلعن أبا العرب) لماذا يسبهم لا ندري؟ قال المؤلف (لله صفاء أذهان العرب) والإمام ابن باديس بالمناسبة له مقال في العرب، سماه "**العرب في القرآن**" أنا كان لي من زمن أريد أن أخطب به خطبة، أقتضب من كلامه لأذكر حقيقة العرب، قال "العرب في القرآن" والعجيب أنه تكلّم بهذا الكلام ارتجالا من غير تحضير، كان في مجلس وكانت مناسبة ليلقي كلمة، فقام وتكلم: العرب في القرآن .. وتكلم، أخرج من القرآن كنوزا وطبعت في ثلاثة مقالات، موجودة في كتاب له طبع على انفراد، كتاب "تفسير ابن باديس"، في آخره "العرب في القرآن"، ثلاثة مقالات لو قرأتها تدرك العجب والكنوز من المفاهيم، والمعلومات والمعاني الموجودة في القرآن الكريم، التي تغيب عنا، ونغيب عنها، لكن يخرجها لنا هؤلاء الأفذاذ كمثل ابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ ومؤلفنا وغيره، فأنا أدعو لقراءة المقال هذا، الذي هو في ثلاث حلقات ينير لك كثيرا من الأمور.

فهذه العربية تقول (**بقرت شويهتي**) يعني شاتي هذه أكلتها، بقرها أي اعتدى عليها ويطلق البقر لثقب البطن، (**وفجعت قلبي**) أي أصبتني بفاجعة يعني ألم (**وأنت لشاتنا ولد ربيب**) هي التي ربتك وأرضعتك (**غذّيت بدرّها**) أي

ولم يوجد اي أثر يدلى على معرفة هذا الجيل للفلاحة[1]. اما المعادن فكانوا يجهلونها بتاتا. وإنما عرف من بعدهم النحاس فسمي عصرهم بالعصر النحاسي، ثم ترقوا إلى معرفة الحديد فسمي هذا العصر بالعصر الحديدي. وما زال العالم في هذا العصر إلى اليوم لوفور منافع الحديد ولذلك ذكره الله من بين سائر المعادن بأسلوب يدل على عموم حاجة البشر إليه في جميع الازمان اذ قال: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}[2].

بلبنها (وربّيت فينا) ربيناك نحن فمن قال لك أن أباك ذئب؟ لأن الذئب هو الذي يعتدي على النعجة، لكن إذا كانت الطباع طباع سوء قد لا ينفع اللبن ولا ينفع الحليب.

وهنا أذكر فائدة ينبغي التنبه لها وهي فائدة في التربية، قد ذكر أحد العلماء قديما من علماء القرن الخامس، وهو أن لبن الأم له أثر في انتشاره في الولد، وحسن طباعه وأخلاقه، وشيمه ونعوته، فلهذا الواجب على الإنسان أن يحسن اختيار المرأة، وأن يحسن اختيار الأكل، فلا يأكل الحرام، وإياه وإياه من الحرام، فإن ما ينشر في ولده له أثر من كسبه الذي يكتسبه.

[1] هل كانوا يستعملون الفلاحة لا يوجد ما يدل على ذلك.

[2] المنافع ينتفعون بها (وأنزلنا الحديد)، وأما البأس، وتأديب الناس به.

[٤ – أدوار مدنية قدماء الجزائر]

مكث قدماء الجزائر- كغيرهم- أحقابا[1] لا يعلم تقديرها إلا العزيز العليم ومدنيتهم محصورة في الحجارة: يستخدمونها في جميع شؤونهم الضرورية والكمالية. غير أنهم كانوا يترقون- وفق ناموس النشوء والارتقاء[2]- في أحكام صنع الحجارة واتقانها، ويتفننون في نقشها وتنميقها[3].

وقد قسم المؤرخون ذلك العصر السحيق الطويل- حسبما هدتهم الآثار المختلفة صنعا وزمنا- إلى ثلاثة أدوار:

١ – عصر الحجارة القديم. كان الإنسان فيه في أول عهده بالطبيعة جاهلا بطرق الاستفادة منها مقتصرا في حياته على استعمال ما اهتدى إليه فكره الابتدائي من المواد الطبيعية التي يسهل تناولها من غير حاجة إلى حذق في صناعتها. استعمل من الحجارة مع تهذيبها قليلا جهازه الحيوي.

وقد عثر الباحثون على شيء من هذا الجهاز بجهات من الجزائر تقدم ذكرها. من ذلك هراوي ومناقير ومساح. وهي من أقدم ما عرف من مدنية الجزائريين في ذلك العصر[4].

٢ – عصر الحجارة الأوسط. تقدم الإنسان في هذا الدور قليلا فرقى الصناعة الحجرية، ومد يده إلى غير الحجارة أيضا: اتخذ من مغارات الكهوف أكنانا[5]، وصنع الفؤوس الحجرية، وجعل إبرا وخناجر من العظام؛ وأواني من بيض النعام[6].

وآثار هذا الدور متوفرة فيما بين قابس شرقا[7] وسطيف غربا.

---

[1] الحقب من الزمان يطلق على الفترة الزمانية الطويلة. {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً}النبأ٢٣

[2] أي المقبول. فالإنسان يرتقي ودائما يختار الأنجع والأنفع له وفق ما يهديه الله ﷻ إليه ويفتح عليه.

[3] نمق الشيء أي دقق في تزيينه.

[4] هذا عصر قديم فكان الأمر بدائيا، بالحجارة مع نحت لها قليل، ومساح التي يؤخذ بها الأشياء، والمناقر التي ينقر بها، فاستعمال الحجارة كان قريبا من أصلها دون إحداث عليها صنع.

[5] كما قال الله ﷻ {وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً}النحل٨١ يعني ملجأ، يكنّه يحميه، من برد وحرٍّ،

[6] يعني تقدم وارتقى.

[7] بليبيا.

٣ - عصر الحجارة الحديث. في هذا الدور أتقن الأنسان صناعة الحجارة وتفنن فيها وتوسع في الاستفادة منها ولم يقف عندها فقط: اتخذ بعض جهازه الحربي- مثل السهام- من الحجارة، ورسم عليها الرسوم العجيبة.

وقد عثروا على بعض تلك الرسوم بجبل بني راشد ووادي ايتل وجهات قالة واتخذ الأواني الطينية للطبخ (مما يدل على تعرفه الى النار)[١].

وصنع الأوعية من الخشب[٢]، والعربات تقودها الخيل لنقل الآلات الحربية والبيوت الخشبية. وأتقن التصوير فرسم صور الحيوانات ومناظر الاصطياد[٣]. وأشرف على المبادئ التاريخية فرسم على أواني الفخار أشكالا هندسية[٤] تمثل الكتابة. وقدر علماء الآثار قدم تلك الأواني الفخارية بنحو ستة آلاف سنة قبل المسيح عليه السلام.

مدنية أية أمة من الأمم مستمدة استمدادا علميا من معقولها ودرجة تفكيرها، واستمدادا عمليا من كسب أبنائها وجهودهم، ويتكون عقلها وعملها من طبيعة المكان الذي تقطنه؛ وتتأثر بما تشاهده من جيرانها أو يبلغها من أخبار الأمم الأخرى[٥].

---

[١] يعني هنا ارتقى أكثر وأكثر وصار فيه إتقان في الصناعة وتفنن، حتى في استعمال الآلات الحربية وفي استعمال الطين، وحتى في الاهتداء لاستعمال الطين وجعلها تنفع للآلات وغير ذلك.

[٢] التي يشرب فيها وتتخذ كالأس، كالإداوة وغير ذلك.

[٣] موجودة على الحجارة.

[٤] لهذا المؤرخون يرجعون لإثبات بعض الأمور كالأزمنة والأمكنة وبعض الآثار التاريخية، والأشياء والمعلومات إلى هذه الأصول، لأن قديما لم تكن منتشرة الكتابة، لكن قد يعبّر على الشيء بالرسوم، يرسم شيئا، فشيئا، فشيئا للدلالة على كلام معين يريد أن يوصله إلى غيره، أشكال هندسية تمثل الكتابة.

[٥] هنا ذكر مبدأ التمدّن، يعني التطور والترقّه، وبلوغ مقام عال في الحياة الاجتماعية العامة والواقعية، من غير تخلٍّ عن دين الله تعالى لا شك ولا ريب، ليست مدنية حيوانية كما عليه الغرب الآن ويريدون أن نكون كذلك، لا.

ولهذا كانت مدنية قدماء الجزائر ذات أقسام ثلاثة:

١ - مدنية محلية لا مشابهة بينها وبين مدنيات الأمم المجاورة لها. من ذلك مدنية أطلق عليها اسم "الصناعة الجيتولية" وآثارها تبتدئ من قابس شرقا وتذهب جنوبا إلى جهات قفصة وتنتهي غربا بنواحي سطيف.

ومدنية أطلق عليها اسم "الحضارة الصحراوية" وآثارها قائمة إلى اليوم بوادي ريغ ووادي مزاب[١].

٢ - مدنية تشبه مدنية قدماء مصر وشمال أفريقية الشرقي.

٣ - مدنية تحاكي مدنية جنوب أوروبا والأندلس المجاورة لها غربا.

من تأمل الآثار الجزائرية- وسائر أفريقية الشمالية - وأمعن النظر فيها، ألفى أن مدنية هذا الوطن كانت شديدة التأثر من ناحية الشرق قليلته من جهة الغرب. بل قد تكون مدنية هذا الوطن هي التي أثرت في مدنيات جنوب أوروبا وغربها حسب البحث السابق.

مبدأ المدنية استمداده من أمرين: من ناحية العلم معقولها ودرجة تفكريهم، ما هي قيمة عقولها، وما هو درجة تفكيرها، هذا علميا، ما عمليا فما هو كسب أبنائها، وما هي جهود أبناء هذه الأمة، فمن أراد بلوغ الشأن في المدنية، فينبني على هذين الأساسين، درجة الفكر والعقل والتفكير عند أبنائنا، وكسب الأبناء ومجهودهم في الكسب.

وكيف تتكون المدنية؟ قال **(ويتكون عقلها وعملها من طبيعة المكان الذي تقطنه)** ذكرنا سابقا أن الانتقال كان من إفريقيا إلى جنوب أوربا وغربها، فما وصلوا إليه من تطور وتقدّم لا يبعد أن نصل إليه نحن، وإنما تركنا فلم نصل، وليس عجزنا، لا، فرق بين العجز والترك، فالتكوين يكون بطبيعة المكان الذي تقطنه.

(وتتأثر بما تشاهده من جيرانها أو يبلغها من أخبار الأمم الأخرى) ومما عند غيرها من الأمم تستفيد الجانب الإيجابي، لا الجانب السلبي،

[١] يعني مدنية الجزائر على هذه الأقسام الثلاثة، بعد أن ذكر أسس المدنية، ذكر مدنيات غير متأثرة بجيرانها وغيرها من الأمم.

والقضايا التاريخية ناطقة بانشراح صدور الأفريقيين عموما للحضارات الشرقية وسرعة تأثرهم بها، ومحاربة المدنيات الغربية وتقززهم منها[1]. وقد يعثر الباحث في بطون التاريخ على جزئيات لا تؤيد هذا الحكم، ولكنها نادرة[2] لا تقوى على مضادته أو نقضه.

وهكذا ترى الجزائر (وجارتيها) من حين مهدها معترفة بفضل الشرق مهبط الوحي ووطن النبوءة ومعدن الحكمة[3].

---

[1] اللَّهُمَّ لك الحمد!.

[2] كندرتها في هذا الزمان.

[3] هذا كلام غاية في الجمال، عالي اللفظ والمعنى، فتأثر هذه الأرض بأرض الوحي، ومنبع النبوات، ومعدن الحِكم، وأحسن المقالات إنما هو الذي كان، ليس تأثرها بمدنية الغرب أبدا فليعقل الناس هذا.

[٥ - لغة قدماء الجزائر]

ذكر غسال في كتابه الجزائر في القديم: "ان لغة قدماء مصر والنوبة[١] والحبشة والبربر ترجع الى أصل واحد[٢]." وقد لخص بيروني في كتابه "المسألة الأفريقية" كلام غسال. وبيرنار **Bernard** في هذه المجلة: "وتشبه لغتهم (البربر) لغات الشمال الشرقي من أفريقية ولغات أروبا الجنوبية والغربية". وقد عبر هؤلاء المؤرخون عن قدماء أفريقية الشمالية بالبربر لاعتقاد جمهور المؤرخين أنهم أول من عمرها. والصواب أنهم مسبوقون بأمة العصر الحجري وهي غير أمة البربر. أفصحت عن ذلك رواية ابن خلدون، ويعضدها قول غسال نفسه أثناء الحديث عن القبور الاثرية: "والبربر ينسبون هذه القبور الى الجهلاء. وهؤلاء كانوا وثنيين وانقرضوا منذ دهر بعيد جدا". إذا لا يخفى ان البربر لم ينقرضوا، إنما انقرضت الأمة التي سبقتهم إلى شمال إفريقية وهي أمة العصر الحجري.

وتشابه لغات هذه الأمم شاهد آخر يضاف الى ما تقدم من الشواهد على صحة رواية ابن خلدون التي صدرنا بها الكلام على أصل قدماء الجزائر. ثم وقوف الشبه من جهة الغرب في جنوب أوروبا وامتداده من جهة الشرق مما يؤيد رأينا السابق أن أبناء قطوبال اتوا على مصر إلى أفريقية ومنها ذهبوا الى ما يليهم من أوروبا.[٣]

---

[١] قريبة من الحبشة الغالب عليها السود.

[٢] هذه الكلمات واللغات ترجع إلى أصل واحد.

[٣] لعلنا نكتفي بهذا القدر، والله تعالى أعلى وأعلم.